الفصل الخامس

ضرورة وجود نظام تربوى جديد

لعل أبرز الحقائق التى يمكن أن يخرج بها المرء نتيجة الوعى بحركة التاريخ لدى معظم الأمم والشعوب ، وعلى امتداد الاحقاب الماضية ، أن الدين كان ولا يزال قوة – لا تماثلها قوة – ذات تأثير ضخم فى تحريك الأحداث التاريخية ، فالمجتمعات البدائية الأولى كانت ذات نظم دينية ولو أنها قامت على أساس من الخرافة والاسطورة الا أنها لعبت دورها الفعال فى حياة المجتمع وأثرت الى حد كبير فى بنائه الاجتماعى والسياسى والفكرى والاقتصادى ، وحتى الأمم القديمة المتقدمة فكريا وحضاريا ، كانت حضارتهم انعكاسات لمعتقداتهم الدينية وطقوسهم وشعائرهم التى مارسوها فى ديانتهم مثل المصريين القدماء (الفراعنة) والهنود والفرس والصينيين والاغريق القدامى

ولما كان الدين فطرة انسانية فانه كذلك ضرورة اجتماعية فلابد لدنيا الناس من مبادى وقيم وخلق مبنية على عقيدة توجههم وتأخذ بأيديهم لما فيه فلاح الفرد وصلاح المجتمع ، ومن أهم الامور أن يقوم الدين على فكر سليم وعقيدة صحيحة حتى تصبح وجهته أصح وفاعليته أشد وفلسفته أصوب وبالتالى تكون قدرته على اصلاح مفاسد المجتمع فعالة ، ويكون تأثيره فى تغيير أو تعديل السلوك الانسانى نحو الفضيلة واضحا • وهو ما تهدف اليه التربية والتعليم فى كل زمان ومكان •

فالدين والتربية شيئان متلازمان منذ خلق الانسان على وجه الارض ، واذا كان التعليم يهدف الى اكساب الفرد كم من المعلومات وقدر من المعارف فان الدين يهدف الى اكساب المرء كل القيم الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وتدريبه على الأعمال الصادقة والافعال الحسنة والسلوك السليم ، فالتعليم يهتم بعقل الانسان فقط ، أما الدين فيهتم بالعقل والقلب معا ، يهتم بالنيات والامال ، يهتم بداخل الانسان وبخارجه أى ظاهره وباطنه أى أن الدين هو التربية •

وليس هناك قوة على وجه الارض تكافىء الدين أو تدانيها فى تعـــديل سلوك الفرد وتربيته وتعليمه احترام القانون والولاء للمجتمع والعمـل على تماسكه واستقرار العلاقات بين الأفراد ، واشاعة اسباب الراحة والطمأنينة فيه • فالانسان مقود أبدا بفكرة صحيحة أو فاسدة ، فاذا صلحت عقيـدته وسلمت فكرته صحت تربيته ، وان فسدت عقيدته فسدت تربيته •

أجل أن الانسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات كافيين وحدهما لاقامة مجتمع فاضل تحترم فيه الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الاكمل فان الذى يؤدى واجبه رهبة من الســوط أو السجن أو العقوبة المادية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن الى أنه سيفلت من طائلة القانون • ومن الخطأ البين أن نعتقد أن فى نشر العلوم والمعـارف والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء والامن والاطمئنان والقيم الخلقيـة السليمة ، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير • ولابد فى حسن استخدام العلم من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الانسانية وعمارة الارض ، لا الى نشر الفساد والشر ـ ذلك الرقيب هـــو العقيدة والايمان •

غير أن الايمان على ضربين : ايمان بقيمة الفضيلة والمثل العليا ، وكرامة الانسان وما الى ذلك من المعانى المجردة التى تســـتحى النفوس العالية من مخالفة دواعيها ولو أعفيت من التبعات الخارجية والاجزية المادية ، وايمان بذات علوية ، رقيبة على السرائر يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمـرها ونهيها وتلتهب المشاعر بالحياء منها أو بمحبتها وخشيتها ، ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطانا على النفس البشرية ، وهو أشـدها مقاومة لاعاصير الهوى والرغبة والنزعات وتقلبات العواطف ، واسرعهما نفاذا فى قلوب الخاصة والعامة •

والمجتمع العربى فى الجاهلية كان ينقصه الايمان بالذات العليـا الالهية فضاع منه الحياء والتقوى كما ضـاع منه من قبل المبادىء والاصول والمثل العليا السماوية التى أوصى بها أبيهم ابراهيم عليه السلام فى صحفه ، ولطول

الأمد وقدم العهد وتوالى الاجيال ضاعت صحف ابراهيم الصحف الاولى التى كانت توجههم فى تربيتهم ٠

فكان لابد من كتاب جديد أو ذكر لاحق أو فرقان مصدق يصحح للمؤمنين ما تم تبديله وتحريفه ويوجه الكافرين والمشركين فى تربيتهم ليتعدل سلوكهم ويرعى عقولهم وقلوبهم بمفاهيم سليمة عن الحياة ونشأة الانسان والكون والأخرة والبعث فيعيدوا تشكيل علاقاتهم وبناء مجتمعهم على اسس سليمة ويضع لحياتهم دستورا او نظاماً وقوانين إلهية متقنة قديرة ذات مرونة وديمومة فيتخلصوا من عاداتهم وتقاليدهم التى بنيت على اعراف آبائهم فأفسدت عقولهم وأوحشت سلوكهم ٠

قال تعالى :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (١) ٠

أى أنه لابد من وضع نظام تربوى جديد قائم على منهج سماوى ليكون هدى للناس ورحمة وعلما ينقلهم من الضلالة الى الهدى ومن الظلمات الى النور ٠

---

(١) سورة لقمان : آية ٢١ ٠

نزول الذكر السماوى (القرآن الكريم)

من رحمة الله على البشر أن أنزل لهم كتابا سماويا يتعلمون فيه ويقتبسون منه نظاما تربويا وطرقا فى التعليم لاعداد الفرد وبناء المجتمع وخاصة أن الظروف العقلية والفكرية والخلقية بالجزيرة العربية كانت مهيأة لنزول العلم والذكر ٠

فانزل الله كتابا للعرب الأميين والناس كافة ليتخذونه دستورا لحياتهم ومرجع عند اختلافهم ومعيارا لمبادئهم وقيمهم وسلوكهم ، وقانونا يحدد علاقاتهم وتعاملاتهم وتفاعلاتهم ٠٠ ذلك هو « القرآن الكريم » ٠

قال تعالى :

« قد جائكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (١) ٠

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢) ٠

كتاب القرآن الكريم المرجع الأساسى فى التعليم :

والقرآن الكريم آخر كتاب سماوى ، هو الكتاب الالهى الذى سلم من التغيير والتبديل والتحريف ، فقد حفظه الله وجعله محفوظا فى الصدور ٠

قال تعالى :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٣) ٠

والقرآن الكريم تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على (محمد) رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما مجزءا فى ليلة السابع عشر « على أرجح الأقوال » من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى التاسع من ذى الحجة يوم الحج الاكبر للسنة العاشرة من الهجرة والسنة الثالثة والستون من ميلاد رسول الله صلى اللهعليهوسلم

---

(١) سورة المائدة آية ١٥ ، ١٦ ٠
(٢) سورة البقرة : آية ٢ ٠
(٣) سورة الحجر : آية ٩ ٠

والقرآن الكريم قد نزل منجما على حسب الحوادث والاحداث ياتى بالحكم الحاسم الحازم فى كل أمر من الامور اراد الله أن ينزله على عباده ، أو طلبوا هم من الرسول صلى الله عليه وسلم الفتوى فيه ، أو سألوا الحكم عنه ، ثم أن هذه الآيات التى نزلت بحسب مقتضيات الحال ومطالب المجتمع اذ ذاك رتبت وجمعت فى سور بحسب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن الزمه الوحى بهذا الترتيب ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يامر كتاب الوحى بأن تكون الآية فى الموضع الذى قرره لها المولى سبحانه وتعالى ٠

وقد قسم القرآن الكريم الى سور بلغ عددها اربع عشرة ومائة سورة ، اولها الفاتحة وآخرها سورة الناس ٠ ونزل منها بمكة خمس وثمانون سورة ، ونزل بالمدينة تسع وعشرون سورة ٠ وتتالف كل سورة من عدد من الآيات وقد بلغ مجموع ما فى القرآن من آيات ٦٣٤٢ آية منها خمسمائة آية فقط تتعلق بالاحكام والتشريع والاقتصاد وانشاء الدول والسياسة الخارجية والمعاهدات ٠٠٠ الخ ٠

ولقد أبرز القرآن الكريم قيمة العلم ومكانته فى كثير من الآيات ، وذكرت مشتقات العلم فى نحو ثمانمائة وخمسين موضعا تكريما له وتعظيما ٠ ومن الآيات سبعمائة وخمسين آية فى الكونيات تتضمن أصولا وحقائق ذات صلة وثيقة بعلوم الفلك والطبيعة والاحياء والنبات وطبقات الارض والزراعة والهندسة والتعدين والصناعة والتاريخ والجغرافية المناخية ٠

وصدق الله سبحانه وتعالى اذ يقول :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (١) ٠

واول ما نزل منه قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (٢) ٠

---

(١) سورة الأنعام : آية ٣٨ ٠
(٢) سورة العلق : آية ١ ، ٥ ٠

وآخر ما أنزل منه قوله تعالى يوم حجة الوداع :

« اليـــوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكـم نعمتى ورضيت لكـــم الاسلام دينا » (١) ٠

ولم يكن القرآن الكريم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كتـاب بالمعنى المفهوم اليوم بل كان اجزاءا مفرقة مدونة على صحف من كاغد او جلد أو جريد النخل أو الحجارة البيض الرقاق أو الواح عظام الابل والغنم ومااليها وقد سمى كتابا قبل أن يتم ظهوره فى كتاب كامل فى عهد عثمان بن عفـــان وهذا اعجاز من القرآن ٠

قال تعالى :

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » (٢) ٠

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه لعلكم ترحمون » (٣) ٠

وقد كان تدوين القرآن موضع العناية الواضحة من الرسول عليه الصلاة والسلام منذ اللحظة الاولى ، وكان كتاب الوحى يلازمونه للكتابة بين يديه لا عمل لهم غير ذلك ومن هـــؤلاء : أبى بن كعب ، زيد بن ثابت ، وعثمان ابن عفان ، وعلى بن أبى طالب ٠

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يهدف وقتئذ من كتابة الآيات فى تلك الصحف المتفرقة والمختلفة فى الحجم والنـــوع - أن يكون مرجعـــا للقراءة والتعليم بل لكى يكون مصدرا أصـليا محفوظا لديه يقى النص من محاولات البعض من أن ينقص منه أو يزيد عليه أو يثنيه فى بعض لفظـه حافظ ٠ اذ كان العرب أهـــل بداوة ولا يعـــرف الكثيرون منهم بل معظمهم القراءة والكتابة فقـد اعتمدوا على ذاكرتهم القوية فى حفظ الآيات وتعلمها ٠

والقرآن حيثما نزلت آياته منجما ومفرقا كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسـلم منهم من حفظه كله ومنهم من حفظ ما تيسر منه ، وأشهر من تتفق الروايات على حفظهم للقرآن كله وقتئذ هم : عثمان ابن عفـــان ، وأبى بن كعب ، وزيـد بن ثابت ، ومعـــاذ بن جبل ، وعلى بن أبى طالب ٠

---

(١) سورة المـائدة : آية ٣ ٠
(٢) سور النمـل : آية ١ ٠
(٣) سورة الانعام : آية ١٥٥ ٠

الدلالة التربوية للقـرآن الكريم

كتاب القرآن وما اشتمل عليه من آيات ومبادىء وتعاليم وقيم خلقيـة وآداب فى السلوك وقصص تاريخية (عن حياة الأمم السـابقة والرسـل والأنبياء) وأصول عامة لفنون الحرب والقتال وقواعـد دينية وتشريعات للحياة ـ يعد أعظم مدرسة الهية وأفضل مقررا علميا ومنهجا تعليميا ، ومرجعا تربويا لكل عالم ومعلم يبحث عن نظريات للتربية ومبادىء للتعليم وآداب فى السلوكية لتنشئة جيل المستقبل من الناشئة والشباب ، وهو مرجع اخلاقى لكل من آراد أن يتعلم كيف يتعامل مع نفسه واصدقائه وجيرانه وأسرته ومجتمعه ورؤسائه ومرءوسيه ليحيا الحياة الدنيا فى خـير وسلام وكيف يتعامل مع ربه لكى يكسب الدار الآخرة ففيه ارضاء للغريزتين الأسـاسيتين اللتان توجهان سلوك الانسان وتصرفه واللتان أطلق عليهما « فرويد » العالم والطبيب النفسى النمساوى غريزتا «الحياة والموت» .وهذه الآداب السلوكية التى جاءنا بها القرآن هى هدف من أهداف التربية فى كل مجتمع وكل عصر ٠

ويخطىء البعض اذا اعتقدوا أن كتاب الله هو كتاب دينى محض يدعو الى الايمان فحسب بما يتضمنه من قواعد الاسلام وهى فرائض الصـلاة والصيام والزكاة والحج لبيت الله والشهادة بوحدانيته ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحدود (الديات) وغيرها ـ بل أن القرآن الكريم كتابا تربويا من الدرجة الأولى أنزله الله بوجه خاص لكى يغير سـلوك المجتمع العربى فى الجاهلية على يد رسـوله الأمين صلى الله عليه وسلم كما أنزله للعالم أجمع بوجه عام ليكون لهم طريقا لحياتهم فهـو كتاب للتربيـة الخلقية وبناء الشخصية الانسانية المتكاملة ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما جئت لأتمم مكارم الأخلاق» وما يسعى اليه رجال التربية وعلماءها فى كل عصر من العصور هو تعـديل أو تغيير سلوك الناشئة والشـباب بما يناسب ظروف مجتمعهم وزمانهم وبما يحقق الخير للفرد والمجتمع على السواء وهو ما دعـا اليه القرآن الكريم ٠

واذا كانت آيات من القرآن تحث الانسان على أن ينظر الى الكون من حوله ويتأمل قدرة الله تعالى وعظمته فى خلق السموات والأرض والجبـال

وتسيير الكواكب والنجوم وتتابع الليل والنهار ، والشمس والقمر فى فلكه يسبحان كل ذلك بقانون ونظام دقيق وتوقيت محدد • فان ذلك دعوة من الله الى البشر بالتأمل والتفكير والبحث والتدبير والتعرف على الاسباب والنتائج والتخطيط والابداع والتنظيم وتعلم العد والحساب والتوقيت والتقويم الزمنى • وهذه جميعا هى هدف من أهداف التربية وهو المعرفة القائمة على التفكير وتنمية التفكير العلمى بهدف تحويل الانسان من مجرد كائن يأكل ويشرب ويتناسل وينام ويتذكر وغيرها من العمليات الحيوية الى انسان مفكر مبدع ومستكشف ومخترع فهو خليفة الله فى الأرض • قال تعالى :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (١) •

الأهداف العامة لنزول القرآن :

نزل القرآن الكريم ليكون مجالا خصبا للدراسة والتعليم ومجالا للتدبر فى خلق الله ، ومصدرا حيا للخلق الكريم وتنمية الوجدان بالقيم ، واذكاء الروح والنفس بالعلم والدين وتنمية الفكر بمشاهدة قدرة الله على خلقه السموات والأرض ، وتتابع الليل والنهار •

قال تعالى :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٢) •

وقد ألقت هذه الآية الضوء على أهداف القرآن والرسالة السماوية نحو تنشئة المسلمين على فكر الاسلام وعقيدته ودستوره عن طريق تلاوة القرآن الكريم واذكاء النفس بالتعليم والحكمة •

وقد وضع الله للمسلمين آدابا فى السلوك القرآنى والتعليم نجملها فيما يلى :

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ •
(٢) سورة الجمعة : آية ٣ •

أولا - آداب التلاوة :

أن تلاوة القرآن على العموم لها آداب هى فى الحقيقة ضروب من الخشوع والاحترام والتقديس امام عظمة القرآن وجلاله · وقد وضع الله أمام رسول الله المعلم وغيره من المتعلمين شروطا فى تلاوة القرآن نذكرها فيما يلى :

١ - الطهارة شرط من شروط التلاوة · قال تعالى :

« ··· لا يمسه الا المطهرون » (١) ·

« يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر » (٢) ·

٢ - أن يكون تلاوة القرآن فى مكان نظيف طاهر مراعاة لجلالة القرآن ولذا فان أفضل الاماكن لتلعم القرآن هو المسجد ·

٣ - أن يقرأ بخشوع وسكينة ووقار ·

٤ - وأن يستاك قبل البدء فى القرآن ·

٥ - وان يتعوذ فى بداية التلاوة لقوله : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (٣) ·

٦ - وأن يحافظ على البسملة فى مطلع كل سورة ·

٧ - أن تكون القراءة مرتلة ترتيلا أى يعطى الحروف حقها من المد والادغام · « ورتل القرآن ترتيلا » ·

٨ - وأن يتدبر ما يقرأ فيشغل قلبه بالتفكير فى معانى الآيات · قال تعالى :

« كتاب أنزلناه اليك ليتدبروا آياته » ·

٩ - والاستماع والانصات التام عندما يقرأ القرآن حتى يتمكن الانسان من التفكير والتدبر والتعقل لما يسمع · قال تعالى :

« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » (٤)·

---

(١) سورة الواقعة : آية ٧٩ ·
(٢) سورة المدثر : آية ١ - ٤ ·
(٣) سورة النحل : آية ٩٨ ·
(٤) سورة الاعراف : آية ٢٠٤ ·

ثانيا - آداب التعليم واسداء الحكمة :

١ - أما ما يجب أن يكون عليه الرسول المعلم وكل معلم هو أن يتواضع لمن يعلمه ومن تواضع بعلمه رفعه الله به وكان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

اذ أن العلم أكبر من أن يحيط به فرد . قال تعالى :

« وفوق كل ذى علم عليم » ، « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (١) .

« الرحمن علم القرآن » ، « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » (٢) .

٢ - الرفق بالمتعلمين والرحمة بهم فيعاملهم الرسول المعلم كما يعامل ابنائه ، قال تعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣) .

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام .

« انما أنا لكم مثل الوالد لولده » .

وقال تعالى :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (٤) .

٣ - لا يقصد الرسول المعلم من وراء التعليم أجرا ولا شكر بل يقصد به وجه الله والتقرب اليه .

قال تعالى :

« وما أسألكم عليه من اجر أن أجرى الا على رب العالمين » (٥) .

---

(١) سورة الرحمن : آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة الكهف : آية ٨٢ .
(٣) سورة النحل : آية ٢١٥ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٥) سورة الشعراء : آية ١٠٩ .

٤ - أن يعمل المعلم بما يقول ويكون قدوة حسنة للمتعلمين .

قال تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (١) .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا » .

٥ - لا يبخل المعلم على المتعلمين بعلمه ولا يمتنع من افادة من يطلب العلم ، فان بذل العلم لطالبه حسنة .

قال تعالى :

« واذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (٢) .

« ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى بعد ما بينا للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« من كتم علما يحسنه ، الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » .

٦ - أن يراعى المعلم مستوى المتعلمين من الناحية العقلية ويخاطبهم على قدر عقولهم حتى لا ينفروا من العلم ولا يتخبطوا فيما لا يفهمون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » .

٧ - التعليم ليس اجبارا أو املاء على المتعلمين بل هو تذكرة من أهل الذكر وتوعية من أهل العلم لمن رغب مقام ربه وحرص على حسن المآب .

قال تعالى :

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

---

(١) سورة البقرة : آية ٤٤ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٨٧ .

« فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » (١) ٠

« وما علينا الا البلاغ المبين » (٢) ٠

« وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » (٣) ٠

٨ - العمل على الاستزادة من العلم ، فالعلم متين كلما استزاد الانسان منه شعر بالرغبة فى الاستزادة ، والعلم كله عند الله ولا نهاية للعلم ٠

قال تعالى :

« لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ٠٠٠ » (٤) ٠

وقال تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام يأمره بالاستزادة من العلم ٠

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » (٥) ٠

٩ - الصبر على مشاق التعليم وأعبائه ، قال تعالى :

« رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته » (٦)

« ٠٠ أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٧)

« وأصبر على ما أصابك أن ذلك من عزم الأمور » ٠

---

(١) سورة الغاشية : آية ٢١ ، ٢٢ ٠
(٢) سورة يس : آية ١٧ ٠
(٣) سورة الأنعام : آية ١٠٧ ٠
(٤) سورة طه : آية ١١٥ ٠
(٥) سورة مريم : آية ٦٥ ٠
(٦) سورة يوسف : آية ٩٠ ٠
(٧) سورة الكهف : آية ١٠٩ ٠

أماكن التعـــليم

الحاجة الى مكان للتعليم والعبادة : (انشاء المساجد) ٠

أن من يلقى نظرة متأملة على صفحات التاريخ يجد أن المجتمع العربى فى الجاهلية والمجتمعات الأخرى فى بلاد فارس وروما (وهما أكبر دولتان فى العالم وقتئذ) كانت أرضهما مفعمة بالمظالم والجرائم التى نشأت من تجاهل المساواة واحتقار مبدئها واتخذ بعضهم ممن قست قلوبهم وتحجرت أفئدتهم من اخوانهم فى البشرية عبيدا بل آلات وأدوات لتحقيق أهوائهم ورغباتهم ولما جاء الاسلام أعلن فى صراحة ووضوح أن بنى الانسان متساوون فى الخلقة والفطرة وفى النشأة والمصـير ، وقامت التربية الاسـلامية على مبـدأ هام ورئيسى وهو المساواة اذ أن الروح البشرية شجرة ثمارها الاخلاق الســاميه والفضائل وحدها مبعث التفريق ومصدر الامتياز الذى يرتفع بأحد المتساوين على الآخر ارتفاعا جوهريا ملحوظا له أثره ونتائجه ، وأعلن أن جميـع بنى البشر يتساوون فى الفطرة ومن خرج على هذه المساواة والاستقامة الطبيعية استحق الحرمان من تكريم الله له ٠

قال تعالى :

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجـالا كثيرا ونســاء » (١) ٠

وقال تعالى :

« يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم » (٢) ٠

وقال عليه الصلاة والسلام :

« الناس سـواسية كأسنان المشـط لا فضل لعـربى على أعجمى الا بالتقـوى » (٣) ٠

وبذلك فان مبدأ المساواة الفطرى فى نظر الاسلام هو من الفضائل التى لابد أن يتمسك بها الانسان علما وعملا ، قولا وفعلا والا كان القول دون الفعل

---

(١) سورة النســاء : آية ١ ٠
(٢) سورة الحجرات : آية ١٢ ٠
(٣) رواه الترمذى والبخارى فى الباب الاول من الكتاب ٠

وبالا على صاحبه ينتهى به الى الانحدار الى دركات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون ٠

قال تعالى :

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (١) ٠

ولما كانت الديانات هى الدعائم الأساسية للفضيلة فقد كان من الطبيعى أن يكون هناك أماكن خاصة لاكتساب الفضائل علما وعملا ، أماكن تمارس فيها المظاهر العملية للمساواة الحقة فبنى الرسول صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة وراعى فيه البساطة والتواضع فى مظهره الخارجى ، ويجرى فى داخله ما يوحى بمبدأ المساواة والديمقراطية على حقيقتها ٠

وكان بناء المسجد فى عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه بناءا بسيطا، اذ صف الرسول جدار قبلته من جذوع النخل وكان جذع النخلة الذى جعله الرسول فى جدار القبلة يستند اليه اذا خطب فى الناس ويتقبل سمته عندما يؤم الناس فى الصلاة ٠ وذلك قبل أن يوضع المنبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة ، وبعد أن صنع المنبر ظل جذع النخلة مكانه سمتا لمكان الامام من جدار القبلة ، وجعل فوق ظهر المسجد علوا ليرقاه بلال رضى الله عنه للآذان ٠ وهذا العلو تطور فيما بعد فاخذ شكل المآذن الاسلامية ٠ ولم يكن بالمسجد النبوى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحات نوافذ للاضاءة أو التهوية ، وما فتح من طاقات نوافذ فى جدران المسجد كان من عمل زيد بن ثابت رضى الله عنه الذى استحدث هذه الفتحات حينما أشرف على تنفيذ عمارة التجديد للمسجد النبوى على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ٢٩ هـ - ٦٤٩ م ٠

وكان من أهم وظائف المسجد النبوى هو تجميع المسلمين لسماع ما جاء به الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تلقى الامر والنهى من الرسول أو المشاركة والمشورة فى تدبير حاجات المجتمع الاسلامى فيما هو معروف من رسالة المسجد فى الاسلام ٠

---

(١) سورة الصف : آية ٣ ٠

هذا غير الوظيفة الحيوية الأساسية للمسجد وهى تمكين من يغشى المسجد من اداء عبادته لله بالصلاة والركوع والسجود .

وهكذا ارتبط التعليم بالمسجد منذ نشأته فى عهد الرسول ارتباطا وثيقا فكان المسجد الى جانب أنه مكانا للعبادة كان ايضا معهدا للتعليم و دارا للقضاء وساحة تتجمع فيها الجيوش ونزلا لاستقبال السفراء والوفود . وكان من الآداب التى أمر الله بها المسلمين فى كتابه الكريم عندما يرتادوا المسجد يفسحوا للرسول عندما يدخل المسجد وينشزوا اذا أمرهم بذلك احتراما له وطاعة لأمره .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات ... » (١) .

فقد كان أكثر المسلمين ايمانا وعلما يجلسون بالقرب من الرسول فى حلقة المسجد ثم يليهم من هم أقل علما .

وقد كان تجمع المسلمين للتعليم والعبادة ليس أمرا مفروضا عليهم الا فى يوم الجمعة ..

وقد كان يوم الجمعة يوما مقدسا ليلتقى فيه المسلمون العلم على يد رسول الله ويؤدون العبادة جماعة كما أمرهم بذلك فى قوله تعالى :

« واذا نودى للصلواة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (٢) .

وكان طاعة المسلمين للرسول المعلم وتكريمه أمر من الله تعالى فقد أمر رب العزة فى كلامه « أن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ، وكانت الطاعة لهذا الامر لازمة تحققت فى الصلوات الخمس وما يتبعها من نوافل ، ثم لزومها عند ذكر الرسول صلى

---

(١) سورة المجادلة : آية ١١ .
(٢) سورة الجمعة : آية ٩ ، ١٠ .

الله عليه وسلم ذهنا او شفاهة فما أن يذكر الرسول أو يشار الى خبر عنه الا وبادر كل مؤمن بالصلاة والسلام عليه ، كما أمر رب العزة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل بما جاء به قولا وفعلا فى قوله تعالى :

« ٠٠ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ٠٠٠ » ٠

وليس أكرم من تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم من العمل بالشريعة التى بلغها ، والالتزام بما سنه لأمته ٠

وتكريم الرسول المعلم واجب على المسلمين فقد فضله الله تعالى على سائر المسلمين والأنبياء من قبله وجعله خاتم النبيين حيث يروى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أعطيت خماسا لم يعطهن أحد قبلى » :

١ ـ نصرت بالرعب مسيرة شهر ٠

٢ ـ وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ٠

٣ ـ وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ٠

٤ ـ وأعطيت الشفاعة ٠

٥ ـ وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ٠

ولا يعنى هذا أن أداء الصلاة والتعبد وتلقى العلم قد ارتبط ببناء المسجد النبوى فى السنة الاولى للهجرة فحسب بل أن التعليم الاسلامى والعبادة قد جرى قبل نشأة المساجد حيث اتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام دار الارقم ابن أبى الأرقم مركزا يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ليعلمهم مبادىء الدين الاسلامى الصحيح ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان الرسول يستقبل فى هذا المنزل من جنحوا الى الاسلام ومالوا اليه ليغمر الرسول قلوبهم بارشاده وتعليمه فيعتنقوا الاسلام وينضموا الى جماعة المسلمين ٠

والى جانب دار الأرقم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل انشاء المساجد أيضا يجلس بمنزله بمكة والمدينة ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، حتى زاد عدد المسلمين الى الدرجة التى لم يعد منزل الرسول يسع

كل تلك الجموع التى دخلت فى الاسلام ، كما كان تدفق المسلمين الراغبين فى التعليم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم تدفقا يكاد يكون متصـــلا مما لا يدع وقتا للراحة والاستجمام ، وقد ظلوا كذلك حتى نزلت الآية الكريمة فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتـــم فادخـــلوا ، فـاذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث، ان ذلككان يؤذى النبىفيستحى منكم والله لايستحى من الحـــق » (١) .

وكان نزول هذه الآية بعد انشاء المسجد وقد خفف الله بها عن الرسول ماكان يعانيه من تزاحم المسلمين على منزله باعداد كبيرة متزايدة تفوق سعة المنزل لكل هؤلاء المسلمين مما دعا الى انشاء المساجد .

ومن الواضح أن منزل الرسول فقط هو الذى أشارت اليه الآية الكريمة وقد فهم من هذا عدم الرغبة فى اتخاذ البيوت مكانا للدرس ، غير أن ذلك لم يرق الى درجة المنع ، اذ كانت بيوت الصحابة والمسلمين ملتقى للطـــلاب والمعلمين على الرغم من وجود المسجد . غير أن المســـجد هو أفضـــل مكان لتعليم المسلمين لانه مكان لاجتماع الناس غنيهم وفقيرهم كبيرهم وصـــغيرهم دون تفرقة بين جنس أو لون فتحقق من خلاله الديمقراطية الحقة .

وقد شرح العبدرى فى كتابه « المدخل » هذه القضية قائلا :

« أن أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلوس للتدريس انما فائدته أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة ، أن يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى ، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفرا ، لانه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم بخلاف البيت فانه محجور على الناس الا من أبيح له ، والبيوت تحترم وتهـــاب حتى لو أبيحت للجميع » ويقـــرر العبدرى فى مكان آخر » ان المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » .

وهكذا كانت أولى الخطوات التى قام بها الرســـول لتكوين المجتمع

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٥٣ . انظر تفسير هذه الآية فى كتاب تفسير الفخر الرازى جزء ٧ صمه ٣٤٧ .

الاسلامى هى بناء مسجد المدينة المنورة ، ولم يكن الهدف الاسمى لبناء مسجد المدينة ايجاد مكان للعبادة فحسب ، فالدين الاسلامى يجعل الارض كلها مسجدا للمسلمين ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من هذا وأقوى • لقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يبدو أن يبنى مكانا لا ينتمى لهذه القبيلة أو تلك ولا يجتمع فيه افراد من أسرة خاصة ، بل أن يشيد مكانا يؤمه الجميع هو بيت الله وبيت جميع الناس ، وفى هذا البيت يلتقى المسلمون للعبادة والمشاورة والتعليم والقضاء ، وفيه يلتفون حول الرسول يأخذون عنه العلم والدين وآيات القرآن الكريم ونظام المجتمع الجديد • وفى هذه المدرسة المحمدية تمتزج النفوس والعقليات وتقوى الوحدة وتتآلف الارواح حيث يتردد عليها الغنى والفقير ، الكبير والصغير لعبادة الله وتعلم مبادىء الدين فتنهار جميع الفواصل والفوارق الطبيعية والاعتبارات العصبية والانساب على عتبة المسجد ، فالمسجد فى هذه الحالة هو خير مصنع لصياغة الديمقراطية والمساواة فى أحسن صورة ، وأعظم مدرسة الهية تهذب النفوس وتزيل منها اثار الكبرياء وتعودها التواضع ولين الجانب ووداعة الأخلاق ، وأفضل مكان لاذكاء العقل وتعلم الحكمة وتلقى العظات والعبر والوصايا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واطهر بيت للثقافة والعلوم الدينية حيث تتم فى حلقات الدرس الى جانب تلاوة القرآن الكريم ، تدبر القرآن والتفقه فيه واجراء المناقشات والمسائل التى تحتاج الى تفسير وبيان وتفصيل الى جانب القاء الخطب الدينية والسياسية التى القاها الرسول وبعض الصحابة •

ومنذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أصبح المسجد مكانا هاما للدرس والتعليم الى جانب العبادة ، وزاد عدد الصحابة والمتعلمين فى عهده حتى بلغ عدد كتاب الرسول اثنين وأربعين كاتبا يكتبون له فى جميع شئون الحياة الدنيا والدين ، هذا غير آلاف المتعلمين الصغار والشباب الذين تعلموا على يديه وكان لهم الفضل فيما بعد فى حمل مشعل الحضارة الاسلامية وتكملة الرسالة التعليمية بنشر التعليم والدين الاسلامى فى البلدان التى فتحوها شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا حتى اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فشملت كثير من دول آسيا وافريقيا وجنوب أوروبا •

وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم التجارة والغاء الشعر فى المسجد ، عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جبريل قال :

« أن الله تعالى يقول أن خير البقاع المساجد وشر البقاع الاسواق» وقال عليه الصلاة والسلام :

« لا تشد الرحال الا الى ثلاث : المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدى هذا » .

وبعد مسجد الرسول فى المدينة انتشرت المساجد فى الدول التى دخلت فى الاسلام . وكانت أول دولة دخلت فى الاسلام فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام هى دولة اليمن فأمر الرسول عامله على اليمن ببناء « جامع صنعاء الكبير » فكان بذلك أول مسجد عمر باليمن فى صدر الاسلام ليتعلم فيه اليمنيون المسلمون أصول دينهم . قال الرازى أحمد بن عبد الله فى « تاريخ صنعاء » .

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر « وبر بن يحنس الانصارى » حين أرسله الى صنعاء واليا عليها فقال له : « ادعهم الى الايمان ، فان اطاعوا لك به فاشرع لهم بالصلاة فان اطاعوا لك بها فمر ببناء المسجد فى بستان « بأذان » ما بين الصخرة الملمة الى غمدان » .

قيل أن الصخرة المشار اليها هى الموجودة الآن فى الجانب الغربى من أصل أساس الجدار لجامع صنعاء . وقيل أن الذى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمارة المسجد هو « فروة بن مسيك المرادى » ، فعمره وعمر الجبانة التى هى مصلى العيدين .

ورأى ثالث أن الذى عمر المسجد هو « ابان بن سعيد » ، وقيل « المهاجر بن امية » اخو أم سلمى رضى الله عنهما ، وكل هؤلاء ممن ولوا صنعاء من الصحابه رضى الله عنهم .

٢ - منزل الرسول :

لما كان اليهود والنصارى يأنفون الذهاب الى المسجد النبوى مكان التعليم والتدريس القرآنى والتشريع السماوى ولما أراد الرسول عليه الصلاة والسلام توحيد منهج التعليم الدينى وجعل القرآن الكريم هو المنهج التعليمى لكل

الناس ، كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعوهم أحيانا الى منزله وأحيانا أخرى يذهب هو اليهم فى معاهد تعليمهم ليقنعهم بأن كتاب القرآن مصدق لما بين أيديهم من كتب التوراة ، والانجيل ، الا أن القرآن كان أفضل مما معهم لأن الله سبحانه وتعالى أنزل به من الآيات والتشريعات التى تناسب ظروف مجتمعهم وقتئذ بل وتناسب كل العصور المستقبلة حتى يوم الدين • كما أن الله أنزل التوراة والانجيل على أمة بعينها اما القرآن فقد نزل للعالم كافة •

قال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (١)•

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله •• » (٢) •

« وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » (٣) •

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير •• » (٤) •

« قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٥) •

« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون وأنه لهدى ورحمة للمؤمنين » (٦) •

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٧) •

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٨ •
(٢) سورة آل عمران : آية ٦٤ •
(٣) سورة الأنعام : آية ٩٢ •
(٤) سورة المائدة : آية ٦٤ •
(٥) سورة البقرة : آية ١٥ •
(٦) سورة البقرة : آية ١٥ •
(٧) سورة النمل : آية ٧٦ ، ٧٧ •

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحـــرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التى كانت عليهم ٠٠ » ٠

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (١) ٠

ففى منزل الرسول عليه الصلاة والسلام كان اليهود والنصارى يجتمعون ليجادلونه فى العلم والدين وكان الرسول صلوات الله عليه يدعوهم الى دين الله ويأمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله عليهم ويؤمنوا بوحـدانيته وكتبـه ورسله واليوم الآخر ٠ وحين اجتمع اليهود ونصارى نجران عند رسـول الله وتنازعوا فى العلم فقالت الاحبار « ما كان ابراهيم الا يهوديا » وقالت النصارى : « ما كان ابراهيم الا نصرانيا » ٠

فقال لهم الرسول فى قوله تعالى :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ٠٠٠ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهـــوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، ان أولى الناس بابراهيم الذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » (٢) ٠

٣ - سـوق بنى قينقاع :

كان لليهود العرب سوق عامة يجتمعون فيها فى أيام معينة من السنة للبيع والشراء وتبادل المنافع وعرض الآراء ووجهات النظر فيما يخص أمور دينهم وحياتهم ٠ هذه السوق هى سوق بنى قينقاع وكان المبشرون عـادة يخرجون الى السوق للاتصال بالقبائل والتأثير فى بعض أفرادها لادخـالهم فى دينهم ٠

ولما أصاب الله عز وجل قريشا يوم بدر جمع رسول الله صلوات الله عليه اليهود فى سوق بنى قينقاع ليعلمهم ويرغبهم فى القرآن ويحذرهم عذاب

---

(١) سورة الاعراف : آية ١٥٧ ، ١٥٨ ٠
(٢) سورة آل عمران ٦٥ ، ٦٨ ٠

الله ونقمته ويذكرهم بالعظة والعبرة بما حدث للكفار يوم بدر ، ويدعوهم الى استخدام ابصارهم وبصيرتهم لكى يروا الحق ويستخدموا العقل ويتزودوا بالعلم الربانى كما جاء فى القرآن .

وفى احد الدروس التى علمها الرسول لليهود بعد غزوة بدر ما دعاهم اليه بقوله :

« يا معشر يهود اسلموا قبل ان يصيبكم الله بمثل ما اصاب به قريشا : فقالوا له : « يا محمد لا يغرنك من نفسك انك قتلت نفرا من قريش كانوا اغمارا لا يعرفون القتال ، انك والله لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس وانك لم تلق مثلنا » (١) فقال لهم ما انزل الله تعالى :

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك عبرة لأولى الأبصار » .

٤ - بيت المدراس :

كان لليهود العرب فى أرض الحجاز مواضع وأماكن يتدارسون فيها ويتعلمون حيث يعلمهم رجال دينهم من الاحبار أحكام الشريعة اليهودية ، ويقصون عليهم أيامهم الماضية وأخبار الرسل والأنبياء قبلهم ويبشرون لهم ما جاء فى التوراة وذلك لتوعيتهم بأصول دينهم ونقل تراث اجدادهم . وعرفت أماكن تعليمهم فى الجاهلية باسم « بيت المدراس » أو المدراس وهذه الاماكن أو المعاهد التعليمية اليهودية تقابل المعهد التعليمى للعرب الوثنيين فى الجاهلية والذى عرف باسم « دار الندوة » .

وقد اعترف الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه المعاهد اليهودية وما كان يعترض على اتخاذها أماكن للدراسة وانما كان يعترض على تحريفهم الكلام الذى جاء فى التوراة عن موضعه ويدعوهم الى الحفاظ على الامانة العلمية وينقلون الى أبنائهم ما كانوا يدرسونه فى التوراة بالحق دون تغيير او تبديل فى كلمات الله . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ماجاء فى قوله تعالى:

---

(١) سيرة ابن هشام ، حـ ١ ، ص ٥٥٢ .

« كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق »(١).

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـــذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » (٢) .

قال تعالى :

« يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » (٣) .

« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أســـلموا للذين هادوا ، والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شـــهداء » (٤) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذهب الى الاحبار فى بيت المدراس ليعلمهم ويجادلهم ويعظهم وفى أحد المناقشات التى دارت بين الرسول والاحبار علماء اليهود فى بيت المدراس قال له بعض علمائهم وهم : النعمان بن عمرو والحارث بن زيد ، « على أى دين انت يا محمد ؟ » قال : على ملة ابراهيم ودينه ، قالا : فان ابراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله : فهلم الى التوراة فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه . فانزل الله تعالى فيهما :

« الم تر الى الذين أوتوا نصـــيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لم تمسنا النار الا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » .

وهكذا كان الرسول يعلم اليهود فى اماكن تعليمهم فى بيت المدراس . وقد أخذ اليهود العرب مصطلح « المدراس » عن العبرانيين من لفظة Midrash التى هى من أصل درش Darash التى تقابل « درس » فى اللغة العربية . ندوة يجتمع فيه اليهود فى أوقات فراغهم لاستشارة بعضهم البعض فى شئونهم ولم يكن المدراس موضع للتعليم والدرس فحسب بل كان الى جانب ذلك دار

---

(١) سورة النســـاء : آية ١٧١ .
(٢) سورة البقـــرة : آية ٧٩ .
(٣) سورة المـــائدة : آية ١٣ .
(٤) سورة المـــائدة : آية ٤٤ .

وللبت فى القضايا التى تهمهم على اختلاف درجة أهميتها أو خطورتها ، فبيت المدراس هى أيضا مجمع الأحبار والرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم، واليه كان يقصد اليهود الجاهلين حين يريدون عرض أمر من الامور أو الاستفهام عن شىء يريدون الوقوف عليه (١) ٠

٥ ـ الكتاب :

الكتاب فى اللغة العربية هو موضع تعليم الكتابة (٢) ويطلق عليه فى عرف اليوم لفظ المدرسة حيث يتعلم فيه الاطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة ويخطىء البعض اذ يعتقد أن الكتاب لم يظهر الا فى المجتمع الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين حين أوصى الامام مالك بعدم دخول الاطفال المساجد ٠ وحين سئل عن ذلك : قال « لا أرى ذلك يجوز لان الاطفال لا يتحفظون من النجاسة » (٣) ٠

وفى الحقيقة أن الكتاب كان موجودا فى الجاهلية وعند ظهور الاسلام يتعلم فيه الصبيان الخط والكتابة على يد معلمين من اليهود وعندما انشأ الخلفاء الراشدين معاهد لتعليم الاطفال مبادىء الدين أطلقوا على هذه المعاهد الاسلامية ايضا اسم الكتاب حيث تعلم الأطفال فيه مبادىء القراءة والكتابة الى جانب القرآن والدين الاسلامى ٠

ومما هو جدير بالذكر أن تعليم القراءة والكتابة العربية كانت منتشرة فى الجاهلية وفجر الاسلام بدرجة غير قليلة ٠ وكتب الطبرى « أنه حين نزل خالد بن الوليد فى الجاهلية الى الانبار ورآهم يكتبون العربية ويتعلمونها»(٤) كما ذكر الاصفهانى « أن عدى بن زيد حين نما واينع طرحه أبوه فى الكتاب » (٥) حتى حذق العربية قبيل الاسلام ٠

وفى كتاب المفصل ذكر أن غلاما جاء يبكى الى أبيه فقال : ما شأنك ؟قال ضربنى معلمى ٠ فقال : الخبيث والله لانأتيه أبدا » (٦) ٠

---

(١) المفصل ، حـ ٦ ، صفحة ٥٥٠ ٠
(٢) لسان العرب ، ج ٢ ٠ صفحة ١٩٣ ٠
(٣) التعليم عند القابسى ٠ صفحة ٦٧ ٠
(٤) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ٠ صفحة ٢٠ ٠
(٥) الاصفهانى : كتاب الاغانى ، ج ٢ ، صفحة ١٠١ ٠
(٦) المفصل ج ٨ صفحة ٢٩٣ ٠

وفى مقالة كتبها« جولد زيهر » فى دائرة معارف الاديان والاخلاق يقول أن ام سلمة احدى زوجات الرسول أرسلت مرة الى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله ٠

ويرى ابن خلدون « ان من تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقول حرب بن أمية وأخذها من « أسلم بن سدره » والخط من الصنائع الحضرية كما يقول ابن خلدون وقد تعلمه هؤلاء المكيون من البلاد المتحضرة التى كانوا يرحلون اليها فى تجارتهم ٠ ويقال أن اول من تعلم الكتابة من أهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وقد تعلمها من بشر بن عبد الله الذى تعلمها من الحيرة(١)

ولما كان العرب لهم شهرة دائمة فى نظم الشعر الموزون المتفى ويعلمونه لابنائهم ممن تتفتح قريحتهم ويظهر استعدادهم للشعر فقد كان تعليم اللغة العربية والقراءة والكتابة أمرا لازما لتعلم الشعر ، وقد استخدم بعض صبيان المكاتب فى بعض الاحيان لنسخ ما يراد نشره أو اذاعته أو حفظه من الشعر ، فورد أن النجاشى الشاعر لما هجا بنى النجار من الانصار شكوا ذلك الى حسان بن ثابت شاعر الرسول فقال قصيدة فى هجائه وهجاء قومه ثم قال : اكتبوها صكوكا وألقوها الى صبيان المكاتب » (٢) ٠

ومن الأدلة سابقة الذكر على وجود الكتاب وتعلم الكتابة فى الجاهلية وفجر الاسلام ما يبدد قول البلازرى فى فتوح البلدان ومن نقل عنه امثال دكتور احمد شلبى وغيره حيث قال :

« أنه لما جاء الاسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط (٣) ٠ ومن الاصح أن يقال من دخل فى الاسلام ممن يعرف الكتابة سبعة عشر رجلا لانه كان هناك كثيرون يعرفون القراءة والكتابة ولكنهم لم يدخلوا فى الاسلام فى بداية الدعوة ٠ وحجتنا فى ذلك أنه

---

(١) البلازرى : فتوح البلدان ، صفحة ٤٥٧ ٠
(٢) البرقوقى : ديوان حسان بن ثابت ، مطبعة النيل ١٩٠٤ صفحة ٢١٣
(٣) البلازرى : فتوح البلدان ، صفحة ٤٥٧ ٠

لما وقع كثير من أهل مكّة فى الأسر بعد غزوة بدر جعل الرسول للقارئين الكاتبين منهم ان يفتدوا انفسهم بتعليم القراءة والكتابة لعدد من ابناء المسلمين ٠

وقد زاد عدد الراغبين فى تعلم القراءة والكتابة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلاة اذ أصبحت القراءة والكتابة كما يقول « الندوى » ضرورتين وبخاصة لذوى الطموح وكبار الآمال الذين كانوا يطمعون أن يشغلوا المناصب فى عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى ظل النظام السياسى الجديد ، وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام على تعليم ابناء المسلمين القراءة والكتابة سواء فى الكتاب أو على أيدى الذميين أو على أيدى المسلمين الذين يعرفون الخط والكتابة سواء فى المنازل أو المساجد لأن الدين الاسلامى يدعو الى العلم والتعليم ويأمر بالقراءة والكتابة ، فقد أمر الله رسوله فى أول آية نزلت عليه فى قوله تعالى :

« أقرأ باسم ربك الذى خلق ٠٠ » ٠

وذكر فى كتاب المفصل أن الرسول أمر الحكيم بن سعيد بن العاص بن أمية بأن يعلم فى الكتاب بالمدينة المنورة ، كما ورد أن على بن أبى طالب التحق بالكتاب فتعلم به الكتابة وهو ابن أربع عشر سنة ٠

وهكذا وجد الكتاب أو المكتب كما يطلق عليه المؤرخون قبل ظهور الاسلام وظل قائما بعد الاسلام وكان يتعلم به الصبية القراءة والكتابة والخط، ووجد به المعلمين فى الجاهلية والاسلام ، ومن هؤلاء المعلمين فى الجاهلية عمرو بن زرارة وكان يلقب بالكاتب ، وغيلان بن سلمة بن معتب وهو جاهلى أسلم يوم الطائف وقد اشتهرت قبيلة ثقيف بالطائف بوجه خاص بفن الكتابة واتقانها منذ الجاهلية مما دعا عمر بن الخطاب الى الاستعانة بثقيف فى كتابة المصحف ٠ وقال عثمان بن عفان « اجعلوا الملى من هذيل والكتاب من ثقيف » ٠

وحينما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ينشر قواعد الاسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة ولهذا نرى أن المدرسة الاولى ـ مدرسة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم قد ربت نساء صالحات كمثل يحتذى به وعلى رأسهم عائشة بنت أبى بكر ، فقد كانت تقرأ المصحف وتعرف الناس بدينهم ٠ وفيها يقول الرسول :

« خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء » ٠

وقال عنها عروة بن الزبير « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا شعر من عائشة » ٠ وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم الفى حديث ٠ وغير عائشة كثيرات منهن الخنساء الشاعرة المعروفة ٠

وقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم أزواجه الكتابة فقال : « للشفاء العدوية » وقد كانت تجيد القراءة والكتابة فى الجاهلية قبل الاسلام ٠ « الا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » ٠ كما حض على تعليم نساء المسلمين ٠

قال صلى الله عليه وسلم : « وايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فاحسن تعليمها وادبها فاحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله اجران » ٠ وكان نساء الانصار يأتين الى الرسول ليتفقهن فى الدين ٠ عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله نساء الانصار يتفقهن فى الدين » (١) ٠

وكان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس فى مسجده بالمدينة يعلم أصحابه ٠ فقال له النساء : يا رسول الله « قد غلبتنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك » وبذلك علم الرسول النساء ووعظهن ٠

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما ٠

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

[سورة الجمعة آية ٢]